بأسًا ولا يلقى فيه مشقة، والأمد بعد قريب بين المدينتين، وما هي إلا ساعات لمن يقطع الطريق ماشيًا، وساعات أقل لمن يقطعها على دابة، فأمَّا إذا اتخذ المسافر هذا البدع الجديد الذي جاء من القاهرة منذ حين والذي هو حديد يمشي على حديد، ويرسل بين يديه دخانًا وغبارًا، ويشق الجو من حوله بالصفير والأزيز والشهيق، هذا الذي يسمونه القطار، فإنه يقطع المسافة في ساعة وبعض ساعة، وما ينبغي لخالد أن يضيع هذه الفرصة أو أن يُخَيِّب أمل الشيخ فيه، فلم يكن الشيخ حين وجد هذا العمل واختار له خالدًا يفكر في هذا الفت وأسرته وحدهما، وإنما كان يفكر مع ذلك في نفسه وفي طريقته أيضًا، فقد كانت هذه المدينة التي يريد أن يرسل إليها خالدًا هي المدينة الوحيدة التي استعصت عليه بين مدن الإقليم، فلم تُرسل إليه الوفود والهدايا في المواسم والأعياد، ولم تنتدب من فقرائها ولا من أغنيائها من يصحب الشيخ في حجه على نفقته الخاصة أو على نفقة الشيخ، ولم تكن تحفل به إن عبرها مع أصحابه مسافرين على ظهور الخيل أو مرَّ بها مع أصحابه مسافرين على ظهر النيل، قد استقر الشيخ في ذهبيته واستقر أصحابه في السفن التي كانت تتلوها، بل كثيرًا ما تجهمت المدينة لهؤلاء السفر الغرباء، حتى كان الشيخ يأمر ألا ينزل أصحابه بها، وألا ترسو سفنه على شواطئها مخافة أن يصيبه ويصيبهم من أهلها بعض ما يكرهون، ذلك أن هذه المدينة وما حولها من القرى كان لها شيخها أو كان لها بيت طريقتها الذي تلتف حوله وتعتز به وتثوب إليه عند الملمات، وتُنَافس به غيره من المشايخ وبيوت المشايخ.

وكان الشيخ الكبير، رحمه الله، لا يُعنى بهذه الأشياء، ولا يحفل بهذه الصغائر، ولا يلتفت إلى من يُقبل عليه أو يُدبر عنه؛ لأنه لم يكن يبتغي استعلاءً ولا جاهًا ولا بُعد صوت، وإنما كان يرى حياته جهادًا في سبيل الله؛ فمن ثاب إليه تلقاه لقاءً حسنًا وعلمه مما علمه الله، ومن نأى عنه لم يفكر فيه إلا مستغفرًا له وراجيًا له الخير والصلاح، فأما الشيخ الشاب فمع أنه لم يقصر في ذات الله فإنه على ذلك لم يقصر في ذات الدنيا، ولم يكن يطمئن إلى أن تقوم المدينة مستعصية مُريبة بين مدن الإقليم، فكان يتمنى أن يرسل إليها رسولًا، أو يُقِرَّ فيها داعية، أو يكون له فيها منزل ينزل فيه إذا مرَّ بالمدينة برًّا أو من طريق النيل، فلما وجد هذا العمل — وأكبر الظن أنه قد جَدَّ حتى وجده — رضيت نفسه واستبشرت، وحزم أمره واصطنع السياسة والحكمة، فلم يفكر في أن يرسل إلى المدينة رسولًا أو يقر فيها داعية، وإنما اكتفى أول الأمر بأن يذهب هذا الموظف، فيُقيم في المدينة كغيره من موظفي الدائرة السنية، ويتخذ لنفسه فيها دارًا رحبة، وينفق فيها